الرواية

د. أحمد يوسف أحمد

بدعوة كريمة من الأخ والصديق العزيز الدكتور مصطفى الفقى والأستاذ محمد رشاد رئيس اتحاد الناشرين العرب والأستاذ ياسر عثمان مدير مكتبة القاهرة الكبرى شاركت فى مناقشة السيرة الذاتية للدكتور الفقى بعنوان الرواية..رحلة الزمان والمكان، وكانت مشاركتى فى المناقشة مع أستاذ الأدب الجليل الدكتور صلاح فضل رئيس مجمع اللغة العربية مصدر اعتزاز كبير لى، وإن كان الحديث بعده قد صعب كثيراً من مهمتى، وقد بدأت تعليقى بتأكيد حماسى الدائم لكتابة السير الذاتية لكل من لعب دوراً فى وطنه ناهيك بأن تكون قد توافرت له بانوراما عريضة للنظر فى أحوال مصر ومحيطها العربى والدولى كالدكتور مصطفى الفقى، فقد تنقل بين المهنة الدبلوماسية والعمل فى المؤسسة الرئاسية فى موقع بالغ الحساسية سكرتيراً للمعلومات للرئيس مبارك ثم عاد للمهنة الدبلوماسية وانتهى للمؤسسة التشريعية المصرية رئيسا للجنة العلاقات الخارجية والبرلمان العربى نائباً لرئيسه، وتوجت مسيرته باختيار الرئيس السيسى له مديراً لمكتبة الإسكندرية، وأشرت إلى سر احتفائى بالسير الذاتية وهو أنها مصدر لا غنى عنه لكتابة التاريخ وتدقيقه لأن الوثائق الرسمية لا تُتاح إلا بعد زمن طويل وأحيانا تبقى محجوبة، كما أنها لا تقول كل شىء ولا تُفصح عن الحقيقة بالضرورة، كذلك هناك أحداث مهمة تحدث فى الشارع السياسى ولا يوجد ما يضمن توثيقها كأحداث ٩و١٠يونيو١٩٦٧، ومن هنا فإنه حتى تسجيل المواطن العادى الواعى للأحداث يكتسب أحيانا أهمية فائقة، وضربت مثالاً بالراحل العزيز أحمد شرف الذى سجل تجربته كمجند عمل مترجماً للخبراء السوفيت إبان معركة بناء حائط الصواريخ الذى مثل خطوة حاسمة فى الطريق لحرب أكتوبر.

تضمن تعليقى على الرواية ست ملاحظات بدأتها بمنهج صاحبها فى كتابة سيرته الذاتية، وهو منهج موضوعى لم يلتزم بالسرد الزمنى الصارم المتبع فى كثير من السير الذاتية على نحو يذكرنا بمنهج المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابة تاريخ مصر، وإنما اختار لنفسه وحدات موضوعية للكتابة صحيح أنه راعى التسلسل الزمنى فى عرضها، لكن وحدة الموضوع بقيت هى الأساس بدليل وجود فصول عن تجربته فى الرئاسة ورموز السلطة فى العالم العربى ونظام مبارك وتجربته التشريعية وترشيحه أميناً للجامعة العربية وثورتى يناير ويونيو وهكذا، وأبديت انحيازى لهذا الأسلوب رغم الاعتراف بما لأسلوب السرد الزمنى من فضل فى تدقيق الأحداث، وقد أثير فى هذا السياق انتقاد مفاده أن الدكتور الفقى لم يذكر كل ماليه من معلومات وحقائق، لكنى انحزت لوجهة نظره بأنه ليس كل ما يُعرف يُقال، وأبسط تبرير لهذه الفكرة أن بعض ما يُعرف تبقى له حساسية فائقة بالنسبة لأمن مصر وعلاقاتها الخارجية. أما الملاحظة الثانية فانصبت على الأسلوب اللغوى البليغ الذى كُتبت به الرواية وقد أبدع الدكتور صلاح فضل فى وصفه، لكننى أضفت أننى أحسبه موهبة فطرية، وإن كان قد صقلها بقراءاته الواسعة فى عيون الأدب العربى وثقافته المتنوعة التى جعلته يُصَدر فصول الكتاب بعبارات جميلة دالة اخترت منها قول غاندى الذى صدر به الفصل التاسع (الخروج من الرئاسة..ميلاد جديد) ليس كل سقوط نهاية فسقوط المطر أجمل بداية، وتذكرت المرة الأولى التى استمعت فيها للفقى وأنا طالب فى السنة الأولى بالكلية وهو بالرابعة ورئيس اتحاد الطلبة فى احتفال بالسد العالى حينما صدر خطبته بعبارة ذهب الحادى إلى جنوب الوادى إلى بحيرة ناصر، وأصخت السمع بعدها لكلمته الجميلة التى أكدت موهبته الفريدة فى الخطابة. وفى الملاحظة الثالثة أشرت إلى الموضوعية التى اتسم بها حكمه على الأشخاص الذين لعبوا دورا أو صادفهم فى حياته حتى أولئك الذين أصابهم منه ضرر ما فأعطى شخصيات مثل حسنى مبارك والبابا شنودة وبطرس غالى وعمرو موسى ونبيل العربى وأسامة الباز وسوزان مبارك وغيرهم حقهم، وعلى سبيل المثال فقد أتى على ملاحظات نقدية لممارسات مبارك لكنه تحدث عن موقفه الصلب من رفض زيارة القدس ودوره فى إسقاط الديون العسكرية بعد حرب الخليج الثانية وغياب النزعة الانتقامية لديه ممن اختلفوا معه، وتعلقت الملاحظة الرابعة بمواقف إنسانية له اخترت منها تكتله وزملائه لتخفيف الحكم بالإعدام على زميل دفعتهم الذى أدين مع غيره فى واقعة اقتحام موقع عسكرى على البحر الأحمر وسرقة الإسرائيليين لرادار الموقع إبان حرب الاستنزاف، وطلبهم وساطة هدى زميلتهم مع والدها الرئيس عبد الناصر ونجاحهم فى تخفيف الحكم، وأشرت فى الملاحظة الخامسة إلى مواقف مبدئية دفع بسببها ثمناً باهظاً وأهمها رفضه زيارة إسرائيل فى أثناء رئاسته لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب المصرى فى ذكرى معاهدة السلام، وكتاباته قبل ثورة يناير عن زواج السلطة والثروة، أما الملاحظة السادسة والأخيرة فتعلقت بقيمة الكتاب لمادته الغزيرة بالغة الإفادة فى التحليل السياسى والتأريخ لهذه الحقبة من تاريخ مصر فى موضوعات محورية مثل البيئة النفسية لصانع القرار الرئيسى، وعملية صنع القرار وما تنطوى عليه من تنافس بين المؤسسات والأوزان النسبية لهذه المؤسسات فى تلك العملية، وتحليل ظهور الطائفية فى عهد السادات، وقضية التوريث والموقف الحاسم للقوات المسلحة منها، وثورتى يناير ويونيو وصعود الإخوان المسلمين وتلونهم وسقوطهم، ولم أجد ما أختم به تعليقى خيراً من كلمات للأديب الراحل الكبير خيرى شلبى وصف فيها مصطفى الفقى بأنه كان مشروع مفكر ناضج من البداية ممتلئ اليد بمحصول فكرى وفير يعرف جيداً كيف يقدمه فى خطاب ملموم جمع مادته بروح فلاح جنايني مر على الأشجار فانتخب منها ناضج الثمر ثم فرزها جيداً قبل تنظيفها وعرضها، وتنبأ بأن ذلك سوف يعود إليه يوماً عندما يكتب لا محالة سيرته، وهاهى نبوءة الأديب الكبير تتحقق، ويخرج علينا مصطفى الفقى برواية عن رحلة الزمان والمكان كأفضل ما تكون.